المحاضرة الخامسة:

النّقـــد السّيميـــائي

تمهيـــد:

إذا حاولنا استقراء تراثنا العربي، فإنّنا نجده حافلاً بالدّراسات النّصّية على دراسة الأنساق الدّالة، وكشف قوانينها، سيما تلك المجهودات القيّمة التي بذلها مفكّرونا من مناطقة وبلاغيين وفلاسفة وأصوليين...إلخ، بيد أنّ مثل هذه الآراء السّيميولوجية التي شملتها كلّ هذه المجالات المعرفية لم تكن منهجية أو مؤسّسة على أسس متينة، ولم تحاول يومًا أن تؤسّس نظرية متماسكة تؤطّرها أو تحدّد موضوع دراستها أو اختيار الأدوات والمصطلحات الإجرائية الدّقيقة التي تقوم عليها، وبالتّالي لم تفكّر في استقلالية هذا العلم، بل ظلّت هذه الآراء السّيميولوجية مضطربةً تجرفها وتتقاذفها التّصوّرات الإيديولوجية والسّوسيولوجية والثّقافية.

انطلاقًا من هذا، سنسعى –من خلال هذه المحاضرة–لفحص تجلّيات المقترحات السّيميائية في الخطاب النّقدي العربي المعاصر والوقوف على حقيقة تمثّله للسّيميائيات والمبادئ المعتمدة في عملية التّحليل السّيميائي للنّصوص، وهو سعي يرخصّ لنا القيام بعملية مسح للمشهد النّقدي السّيميائي العربي:

1–مبادئ التّحليل السّيميائي في النّقد الأدبي العربي:

لقد أولى النّقّاد العرب الاهتمام بتحديد إجراءات التّحليل التي تساعد على وصف أنظمة الدّلالة، ورصد كيفية وسيرورة انتقال المعنى من الشّكل إلى المضمون؛ أي من البنية السّطحية إلى البنية العميقة ما دامت السّيميائية عبارةً عن لعبة التّفكيك والتّركيب وتحديد البنيات العميقة الثّانوية وراء البنيات السّطحية المتمظهرة فونولوجيا وصرفيا ودلاليا، وتركيبيا.

ولتحقيق هذا الهدف اتّبع النّقاد العرب مجموعةً من المبادئ التي تساعد في الإحاطة بمضمون النّص، وقد عُدّت هذه المبادئ مسلّماتٍ يقتضي التّقيّد بها، ويمكننا حصرها فيما يأتي:

-**التّحليل المحايث**: ونقصد به البحث عن الشّروط الدّاخلية المتحكمّة في تكوين الدّلالة وإقصاء المحيل الخارجي، وعليه فالمعنى يجب أن يُنظر إليه على أنّه أثر ناتج عن شبكة من العلاقات الرّابطة بين العناصر.

-**تحليل بنيوي**: يكتسي المعنى وجوده بالاختلاف وفي الاختلاف، ومن ثمّ فإنّ إدراك معنى الأقوال والنّصوص يفترض وجود نظام مبني من العلاقات، وهذا بدوره يؤدّي بنا إلى التّسليم أنّ عناصر النّص لادلالة لها إلاّ عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها، لذا، يجب الاهتمام بالعناصرالثاوية في نظام الاختلاف تقييما وبناء، وهو ما نسمّيه شكل المضمون؛ أي بعبارة أخرى تحليلاً بنيويا لأنّه لايهدف إلى وصف المعنى نفسه، وإنّما شكله ومعماره.

-تحليل الخطاب: يهتمّ التّحليل السّيميوطيقي بالخطاب؛ أي يهتمّ ببناء نظام لإنتاج الأقوال والنّصوص، وهو ما يُسمّى: القدرة الخطابية، وهذا ما يميّزه عن اللسانيات البنيوية التي تهتمّ بالجملة.

أمّا الأستاذ (محمّد السّرغيني)، فهو يرتضي تقسيما ثلاثيا للاتّجاهات السّيميولوجية تتمثّل في الاتّجاه الأمريكي والاتّجاه الفرنسي والاتّجاه الرّوسي، في حينٍ آثر (مبارك حنون) التّقسيم الآتي: سيميولوجيا التّوصّل، والدّلالة، وسيميوطيقا بيرس، ورمزية كاسيرر، وسيميولوجيا الثّقافة.

2-السّيميولوجيا في العالم العربي:

ظهرت السّيميولوجيا في العالم العربي عن طريق التّرجمة والمثاقفة والاطّلاع على الإنتاجات المنشورة في أوروبا والتّلمذة على أساتذة السّيميولوجيا في جامعات الغرب، وقد بدأت السّيميولوجيا في دول المغرب العربي أولا، وبعض الأقطار العربية الأخرى ثانيا، عبر محاضرات الأساتذة منذ الثّمانينيّات من القرن العشرين عن طريق نشر كتب ودراسات ومقالات تعريفية بالسّيميولوجيا (حنون مبارك-محمّد السّرغيني-سمير المرزوقي-جميل شاكر-عواد علي-صلاح فضل-جميل حمداوي-فريال جبوري-غزول).

أو عن طريق التّرجمة (محمّد البكري-أنطون أبوزيد-عبد الرّحمن بوعلي-سعيد بنكراد...) وإنجاز أعمال تطبيقية في شكل كتب (محمّد مفتاح-عبد الفتّاح كليطو-سعيد بنكراد-محمّد السّرغيني-سامي سويدان...) أو مقالات (انظر: مجلّة علامات، ودراسات أدبية لسانية وسيميائية بالمغرب، ومجلّة عالم الفكر الكويتية، وعلامات في النّقد السّعودية، ومجلة فصول المصرية...) ورسائل وأطروحات جامعية تقارب النصوص الأدبية والفنية والسياسية...على ضوء المنهج السيميائي أنجزت بالمغرب وتونس وهي لا تعد ولاتحصى.

ولقد وقع النّقد السّيميولوجي العربي في عدّة اضطرابات اصطلاحية ومفاهمية في ترجمة المصطلح الغربي، إذ نجد علم الدّلالة (محمّد البكري...)، الرّمزية (أنطون نعمة في دراسته السّيميولوجيا والأدب...) والسّيمياء (محمّد مفتاح في كتابه سيمياء الشّعر القديم)، وعلم العلامات-علم الإشارات-والسّيميولوجيا-والسّيميوطيقا وما يلاحظ على هذه التّطبيقات السّيميائية أنّها عبارة عن تمارين شكلية تغفل الجوانب المرجعية والمضمونية والأبعاد الإيديولوجية، كما تخلط بين المناهج تلفيقا واتّقاء.

أمّا النّتائج المتوصّل إليها، فأغلبها تبقى— في اعتقادي-تحصيل حاصل، وذلك بعد تسويد العديد من الأوراق المرفقة بالأشكال والجداول والرّسومات الهندسة والأسهم التّواصلية، لكنّ الفائدة قليلة جدّا تتمثّل في لعبة التّفكيك والتّركيب، دون الحصول على معارف جديدة، عدا القليل من الدّراسات والأبحاث الجادّة، ويلاحظ أيضا أنّ هذا المنهج السّيميائي يقف عند حدود الملاحظة والوصف، ولايتعدّى ذلك إلى التّقويم والتّوجيه الذين يُعدّان من أهمّ عناصر النّقد الأدبي.

تلكم نظرة مُوجزة عن ملامح النّقد السّيميولوجي عند النّقّاد العرب، التي أحدثت نقلة في خطابنا النّقدي، فتمثّلها النّقاد العرب، وتفاعلوا معها، واعتمدوا في مكاشفة النّصوص العربية الحديثة والقديمة فظهرت عنهم حركة جادّة عكفت على ترسيخ الممارسة السّيميائية في النّقد العربي.